# Bab 9

## رحمة للعالمين في ضوء أقوال المفسرين رحمهم الله

خزري عثمان، فائز الأزهام محمد ومحمد ذوالكفل عبد الغني

### المقدمة

اصطفى الله عزّ وجلّ نبينا محمدا صلّى الله عليه وسلّم خاتم الأنبياء والمرسلين لحمل الرسالة، وجعله رحمة للناس كافّة. من النعم الكبرى التي أنعمها الله علينا إرساله صلّى الله عليه وسلّم بالحنيفيّة السمحاء رحمة للعالمين، وهذه الرحمة ذات صور من المودّة والمحبّة والتسامح والعفو والحزم والاحترام. ومن الجدير بالذكر أنّ رسالة الإسلام رسالة عالمية، تجاوزت حدود الزمان والمكان واللغة والجنس والبلاد والقارة والولايات. فقدّر الله سبحانه وتعالى أن يجعل الناس مؤمنا وكافرا ومسلما ومشركا وخاضعا لأوامره وجاحدا.

إن الله تبارك وتعالى شرع لعباده دينا قويما وهداهم صراطا مستقيما من اتبعه فقد اهتدى بهديه، ومن ضلّ عنه فقد خسر في الدنيا والآخرة. دين الإسلام الذي بعث الله به سيّدنا محمّدا دين شامل ويكمل جميع الأديان قبله، وهو رسالة الله الخالدة إلى قيام الساعة. يبقى السؤال الذي يتبادر في الذهن،

كيف يبقى الكفر على وجه الأرض، ومع وجوب تبليغ الدعوة إلى الناس كلّهم؟ فالدعوة واجبة على كل مسلم، وإنّ التشريع الإسلاميّ نظّم علاقة المسلم مع غيره ووضع الضوابط والشروط ليتعاملوا بعضهم بعضا داخل المجتمع الإسلاميّ وخارجه.

## آراء المفسّرين حول الآية الكريمة

وقد أنزل الله القرآن على رسوله بلغة قومه. وأعظم بيانٍ للقرآن هو بيان القرآن نفسه لِمن تدبَّره. فهم القرآن وتدبره ليس مقصورًا على العلماء، بل كل واحد منا لا بد إنّ يسعى في فهم القرآن، بحسب ما ييسّره الله له، وبحسب ما معه من الفهم والعلم والإدراك. فالله تبارك وتعالى دعا عباده كلّهم إلى تدبّر القرآن وفهمه، لم يخص طائفة بذلك دون طائفة، ولو كان فهم القرآن وتدبره مقتصرًا على فئة من الناس – العرب مثلا – لكان نفع القرآن محصورًا عليهم، ولكان الخطاب في الآية موجّهًا إليهم، وهذا معلوم البطلان. ولذلك نحتاج إلى علم تفسير القرآن، وهو علم يشمل ما جاء في القرآن نفسه من البيان لبعض آياته، وما نُقل عن الرسول صلّى الله عليه وسلّم ، وما نُقِل عن الصحابة رضوان الله عليهم، وما نُقِل عن التابعين، من كل ما هو بيان وتوضيح لمراد الله تعالى من نصوص كتابه الكريم. قال أبو حيان (1998) : التفسير علم يبحث عن كيفيّة النطق بألفاظ القرآن، ومدلولاتها، وأحكامها الإفراديّة والتركيبيّة، ومعانيها التي تُحمل عليها حالة التركيب، وتتمات لذلك.

## "رحمة للعالمين" لسعادة الدارين

لا نستطيع أن نفهم كيفيّة إرسال الله تعالى نبيّه بالرحمة الواسعة وما المراد بالرحمة، ومن يستفيد من هذه الرحمة، إلا بالرجوع إلى آراء المفسّرين ودراستها حول هذه الآية الكريمة. الرحمة في رسالة الإسلام التي جاء بها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم تتضمّن في الآيات الكثيرة. منها قوله تعالى في سورة الأنبياء (21:107)

وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧

وقد اختلف العلماء المفسّرون والفقهاء في معنى "إرسال ورحمة والعالمين". نقل الطبريّ (2000) في تفسيره أنّ من آمن بالله واليوم الآخر كُتب له الرحمة في الدنيا والآخرة ، ومن لم يؤمن بالله ورسوله، عوفي مما أصاب الأمم من الخسف والقذف. الله أرسل نبيّه محمّدا صلّى الله عليه وسلّم رحمةً لجميع العالم، مؤمنهم وكافرهم. فأمّا مؤمنهم فإنّ الله هداه به، وأدخله بالإيمان به وبالعمل بما جاء من عند الله الجنّة. وأمّا كافرهم فإنّه دفع به عنه عاجل البلاء الذي كان ينزل بالأمم المكذّبة رسلها من قبله.

وقال ابن كثير (1999)، أرسل الله رسوله صلّى الله عليه وسلّم رحمة للأمة كلّهم، فمن قَبِل هذه الرحمةَ وشكَر هذه النعمةَ، سَعد في الدنيا والآخرة، ومن رَدّها وجحدها خسر في الدنيا والآخرة. ووافق البغويّ رأي الطبريّ حيث يقول : الرحمة التي جاء بها نبينا محمد صلّى الله عليه وسلّم عام في حق من آمن ومن لم يؤمن. فمن آمن فهو رحمة له في الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن فهو رحمة له في الدنيا بتأخير العذاب عنهم ورفع المسخ والخسف والاستئصال عنهم. ونقل

ابن عادل (1998)، " رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ " عام في حق من آمن ومن لم يؤمن. كان الرسول صلّى الله عليه وسلّم رحمة في الدين والدنيا، أمّا في الدين فلأنّه بعث والناس في جاهلية وضلال، وأهل الكتابين كانوا في حيرة في أمر دينهم لطول مدّتهم وإنّقطاع تواترهم ووقوع الاختلاف في كتبهم ، فبعث الله محمداً حين لم يكن لطالب الحق سبيل إلى الفوز والثواب ، فدعاهم إلى الحق وبين لهم سبيل الصواب وشرع لهم الأحكام، وميّز الحلال والحرام، فمن كانت همّته طلب الحق فلا يركن إلى التقليد ولا إلى العناد والاستكبار.

ورأى المفسّرون المتأخرون منهم الشنقيطيّ (1995) إنّ الله عزّ وجلّ ما أرسل محمدا صلّى الله عليه وسلّم إلى الخلائق إلاّ رحمة لهم ؛ لإنّه جاءهم بما يسعدهم وينالون به كل خير من خير الدنيا والآخرة إنْ اتبعوه. ومن خالف ولم يتّبع فهو الذي ضيع على نفسه نصيبه من تلك الرحمة العظمى. وضرب بعض أهل العلم لهذا مثلا، قال : لو فجّر الله عينا للخلق غزيرة الماء، سهلة التناول، فسقى النّاس زروعهم ومواشيهم بمائها، فتتابعت عليهم النعم بذل ، وبقي أناس مفرّطون كسالى عن العمل، فضيّعوا نصيبهم من تلك العين – فالعين المفجّرة في نفسها رحمة من الله، ونعمة للفريقين. ولكن الكسلان محنة على نفسه حيث حرمها ما ينفعها. وقال الهرريّ (2001)، أرسل الله نبيّ الرحمة لسعادة الدارين، ومنشأ لانتظام مصالحهم في النشأتين، ومن أعرض عنه واستكبر، فإنّما وقع في المحنة من قبل نفسه فلا يُرحَم. فإنّ الناس كانوا في ضلالة وحيرة، فبعث الله تعالى سيدنا محمدًا صلّى الله عليه وسلّم فبيَّن لهم سبيل الثواب، وأظهر الأحكام، وميَّز الحلال من الحرام، وإنّ كلّ نبي قبل نبينا، إذا كذَّبه قومه أهلكهم الله تعالى بالخسف والمسخ والغرق فالله تعالى أخّر عذاب من كذّبه إلى الموت،

ورفع عذاب الاستئصال عنهم به صلّى الله عليه وسلّم فجاء رحمةً في حق غير المسلمين بسبب تأخير عقوبتهم.

## "رحمة للعالمين" بتأجيل العقوبة

ومن رحمته صلّى الله عليه وسلّم إنّه دعا الله أنْ لا يهلك أمته بسنة عامة، لكنّه صلّى الله عليه وسلّم أخبر بوقوع أصناف من العذاب مثل المسخ والقذف والخسف الذي يكون بين يديْ الساعة. منها، الحديث الذي روتها عائشة رضي الله عنها وأخرجه الترمذيّ (1998)، قَالَ رَسُولُ اللهِ صلّى الله عليه وسلّم : يَكُونُ فِي آخِرِ هَذِهِ الأُمَّةِ خَسْفٌ وَمَسْخٌ وَقَذْفٌ، قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إنّهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: نَعَمْ إِذَا ظَهَرَ الخُبْثُ.

تأخير العذاب والإهلاك لمن كفر بالله تعالى لأجل أنْ يتوبوا ويُسلموا. قال الطبريّ (2000)، إنّ الله تعالى ذكره لنبيّه محمّد صلّى الله عليه وسلّم : وربّك الساتر يا محمّد على ذنوب عباده بعفوه عنهم إذا تابوا منها. لو يؤاخذ الناس بما كسبوا من الذنوب، كالكفر والمعاصي، لعجَّل لهم العذاب، لشناعة ما يرتكبونه، ولكنه حليم لا يعجّل بالعقوبة، فهو يمهل ولا يهمل (الشنقيطي 1995). ولذلك على غير المسلمين إنّ ينتبهوا إنّ عذابهم حاصل ولا شك يوم القيامة، وإنّ التأخير فيه إنّما لإنّه لم يحن وقته الذي قدَّره الله تعالى عليهم، وهو يوم البعث.

## "رحمة للعالمين" وسعادة المؤمنين في الآخرة

لماذا يسعد غير المسلم في الدنيا؟ لماذا يرزقهم الله رزقا واسعا يعيشون فيها كما يشاؤون؟ نعم، إنّ الله جل وعلا جعل للرزق أسبابًا حسيّة ماديّة، وأسبابا شرعيّة. فالأسباب الماديّة كالعمل والتجارة والاجتهاد في ذلك. من زرع حصد ومن جد وجد. وهذه الأسباب يستوي فيها جميع الخلق، من آمن ومن كفر، فكل من عمل وسعى في كسب الرزق رزقه الله. فكل مخلوق لابد أنْ يصل إليه رزقه المقدَّر له، بسبب أو بغير سبب. قال المفسرون : كُلاًّ نعطي من الدنيا، البَرَّ والفاجرَ، والمعنى : إنّ الرزق يعم المؤمن والكافر، والآخرة للمتقين خاصة (ابن الجوزي 2002). إنّ السعادة في المنظور الإسلاميّ ليست قاصرة على الجانب الماديّ فقط، وإنّ كإنّت الأسباب الماديّة من عناصر السعادة، ذلك إنّ الجانب المادي وسيلة وليس غاية في ذاته. فسعادة المؤمن الحقيقية ليست في الدنيا وإنّما في الآخرة دار الخلد والبقاء. أمّا الدنيا فإنّها فانية بلا شك.

## تسامح النبي صلّى الله عليه وسلّم في التعامل مع غير المسلمسن

قد خاطب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مخالفيه باللين من القول تأليفا لهم، كما تظهر سماحته مع غير المسلمين في رسالته إليهم حيث تضمنت هذه الرسائل دعوتهم إلى الإسلام بألطف أسلوب. وأمّا معاملتهم في البيع والشراء، فقد كان يبيع ويشتري من اليهود، كان اشترى طعاما لأهله ، ومات ودرعه

مرهونة عندهم. روى البخاريّ (2000) الحديث الذي روته عائشة رضي الله عنها، تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ صلّى الله عليه وسلّم وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ يَهُودِيٍّ بِثَلَاثِينَ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ. وليس فيه ما يمنع أن يكون رسول الله صلّى الله عليه وسلّم باع اليهودي بأجل ورهن درعه، أو استدان منه قمحًا أو شعيرًا ورهنه درعه لبيان الجواز، ولا يعني ذلك إنّه صلّى الله عليه وسلّم كان فقيرًا، أو محتاجًا، وليس في الحديث مذمّة أو منقّصة له عليه الصلاة والسلام، بل هو درس للتسامح والتعاطف والمحبّة بين المسلمين وغير المسلمين (عبد الله عطا عمر 2015).

وفي هجرته إلى المدينة المنورة، استأجر النبي صلّى الله عليه وسلّم وأبو بكر رجلا من بني الديل هاديا خريتا، والخريت الماهر بالهداية، وهو على دين كفار قريش وأمناه، فدفعا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال. هذا الحديث رواه البخاريّ (2000). وفيه دليل على جواز استئجار المسلم للكافر على هداية الطريق إذا أمن إليه (الشوكانيّ 1993). من الناحية الأخرى، يجوز للمسلم أنْ يتّخذ خادما غير مسلم بشروط أن لا يُدخل على طعام المسلم نجاسة في طعامه وثيابه وغيرها، وأن لا يطبخ له ما يحرم أكله كالخنزير، وإنّ لا يحصل باستخدامه فتنة في الدّين كالإعجاب بالنصرانيّة أو تأثّر الأولاد المسلمين بطقوس الكفر التي ربما يمارسها هذا الخادم، وأن لا يحصل افتنان به أو بها من جهة الشهوة والوقوع معه أو معها في الحرام كما يحدث لو تكشّفت الخادمة النصرانية أمام صاحب البيت المسلم وأولاده. وعلى المسلم أنْ يحرص على

استخدام المسلمين لأنهم أقلّ شرا في الجملة من غير المسلمين وأبعد عن الوقوع في المحرّمات والمحظورات المخالفة للشريعة، ثم لو كان عند المسلم خادم غير المسلم فعليه أن يحرص على دعوته إلى الإسلام والاجتهاد في السعي لهدايته (المنجد 2002)

## الخـاتمة

لخّص الله سبحانه وتعالى رسالة نبيّنا صلّى الله عليه وسلّم ؛ بإنّها رحمة للعالمين. فما أُرسل لأيّ هدف من الأهداف إلّا لتبليغ هذه الرسالة العالميّة السمحة تتضمن فيها الرحمة لجميع الخلق، مسلم وغير مسلم وجاحد ومؤمن، فغاية إرساله الرئيسة هي نشر الرحمة بينهم. فمن رغب عن رسالته فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين. فإنّ الإسلام قد أباح لنا التعامل مع غير المسلمين بيعًا وشراءً وإجارةً وغيرها، بشرط أن لا يكون في أمر محرّم، فقد كان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يتعامل معهم ومع ذلك يدعوهم إلى الإسلام. يجوز للمسلم أنْ يُعامِل غير المسلم بالمعروف، ويقابل بِرَّه بالبرّ، ويتبادل معه المنافع والهدايا. وهذا مطابق لهدف إرسال صلّى الله عليه وسلّم إلينا وتطبيقا لشعار "رحمة للعالمين".

## المراجع

أبو حيانّ، محمد بن يوسف،. 1998. *البحر المحيط في التفسير*. بيروت : دار الفكر

ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي. 2000. *زاد المسير في علم التفسير*. بيروت : دار ابن حزم.

الطبري، محمد بن جرير. 2000. *تفسير الطبري*. بيروت : مؤسسة الرسالة.

الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار. 1995. *أضواء البيان*. بيروت : دار الفكر.

الهرريّ، محمّد الأمين بن عبد الله. 2001. *تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن*. بيروت : دار طوق النجاة

الترمذيّ، محمّد بن عيسى. 1998. *سنن الترمذي*. بيروت: دار الغرب الإسلاميّ.

ابن عادل، أبو حفص عمر بن علي. 1998. *اللباب في علوم الكتاب*. بيروت: دار الكتب العلمية.

عبد الله عطا عمر. 2015. هل مات رسول الله ودرعه مرهونة عند يهودي؟ http://articles.islamweb.net/media/index.php?page=article&lang=A&id=202939

الخاري، محمّد بن إسماعيل. 2002. *صحيح البخاري*. بيروت : دار طوق النجاة.

الشوكإنيّ، محمّد بن عليّ. 1993. *نيل الأوطار*. مصر : دار الحديث.

المنجد، محمّد صالح. 2002. هل يجوز استخدام خادم غير مسلم؟ https://islamqa.info/ar/31242